سكان البلاد العربية الاقدمون

واللغة التي كانوا يتكلمون بها

وتطوراتها

لقد كان من نصيب عصرنا الحاضر استنباط النظريات المعقولة والآراء المبنية على قواعد علمية في السكان الاقدمين للبلاد التي تنطق الآن باللغة العربية ولاسيما في آسيا الغربية : فالعيلاميون والاثوريون والآراميون وبنو عابر وأنسالهم من القحطانيين وغيرهم ؛ كل هؤلاء جالت في عروقهم دماء واحدة ، وتناسلت أدمغتهم وقلوبهم من أرومة واحدة ، وهي الارومة السامية . وكانوا كلما بارك الله في عددهم يتوسعون في البلاد ، الا أنهم ظلوا أبناء جنسية واحدة حريصة على أنسابها ، وأبناء بلاد واحدة لا تفصل بين قبائلهم فيها أرض أجنبية . وكلما انفردت طائفة منهم عن أختها زادت حاجات الزمان والمكان كلمات جديدة على لهجتها فافترقت بذلك عن اللغة الاولى ببعض المفردات وبشيء من صفات التلفظ بها ؛ ومع ذلك فان مجموع لهجات هذه الشعوب السامية ظلت محافظة على أصلها الجامع بينها . فجميع هؤلاء السكان هم من دم واحد ؛ قد اتصلت أنسابهم ، وتجاورت مساكنهم ، واجتمعت أقطارهم ، وتشابهت لهجاتهم ، فليس ثمة من تفاوت الا بمقدار ما يؤثر اختلاف الحاجات على مفردات تلك اللهجات ، واختلاف الاقاليم على ألوان البشرة ، كما هي الحال الآن في سكان هذه البلاد نفسها

سمّ هؤلاء الاقدمين من سكان البلاد العربية الحاضرة (ساميين) اذا شئت ، أو (عمالقة) ان أردت ، أو بما ترى من الاسماء ، فالعناوين لا تغير الحقائق . ولكنك لا تستطيع بحال من الاحوال أن تنكر عليهم تلك الحقيقة الناصعة ، والقضية الثابتة المقررة ، وهي أنهم جميعاً أبناء أسرة واحدة ، متحدرة من أرومة واحدة ، ومتوطنة أو متنقلة في أقطار متصلة تتألف منها

ساحة واحدة لا يفصلها على الخريطة فاصل غريب عنها

كذا شاء الله أن تكون : فنحن أمة واحدة ان لم يكن أبناؤها اخوة من أب واحد فهم بنو عمومة يرجعون بعد ذلك الى أصل واحد

وكذا شاء الله أن تكون : جيراناً نتلقى عن خريطة بلادنا درس اتصالنا واجتماعنا في وطن واحد

وكذا شاء الله أن ننطق بلسان بهما تعددت لهجاته ـ قبل الانبياء وبعد الانبياء ـ فانه كان ولا يزال ابن لغة واحدة ، منذ وجدنا في أزل الآزال الى ان نبيد في أبد الآباد

هذا شأن اللغة السامية الاولى أم لهجاتنا الغابرة في زمن النشوء ، وشأن لغتنا العربية الحديثة أم لهجاتنا الحاضرة في زمن النشور ، وهذا أيضاً شأن المتكلمين بهما من عصر البداية الى دور التمام : صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة !

***

أتى على سكان الاوطان العربية ـ من شمالها الى جنوبها ـ حين من الدهر لم يكونوا ينطقون بهذه اللغة العربية التي نتكلم بها اليوم ، ولا كانوا يعرفون اللغة السبأية ، ولا اللغة الآرامية التي تسمى أيضاً الكلدانية والسريانية ، ولا اللغة الفينيقية ، ولا شقيقتها العبرية ، ولا اللغة النبطية ، ولا شيئاً من اللغات المتفرعة عن ذلك كله

ولم يكونوا قد اخترعوا القلم المسند في اليمن ، ولا الخط المسماري في العراق ، ولا الهيروغليفي في مصر ، ولم يوجدوا الابجدية الفينيقية ثم السريانية والعبرية والنبطية والصفوية في ربوع الشام

كان أجدادنا في أقدم عصورهم يتكلمون بلغة واحدة انقرضت بجملتها لا بمفرداتها ، فلم يعد يتكلم بمجموعها أحد من ذراري أولئك الاجداد : ان المواد الاشتقاقية لاكثر مفردات هذه اللغة السامية الاولى لا تزال موجودة

الى يومنا هـذا ، غير أنها متفرقة فيما تفرع عنها من اللغات ـ أو اللهجات ـ السامية ، سواء في ذلك مابقي منها حياً نضيراً ـ وفي مقدمته لغتنا العربية الشريفة ـ وما انطوي خبره مع العصور الاولى فلم يعد يلفظ به الا عند قراءة مانقش منه على الاحجار والآثار

ولاجل أن يعرف جمهور الناطقين بالضاد كيف كانت لغة أجدادهم واحدة ، ثم أوجدت بينها حاجات الزمان والمكان اختلافا في بعض المسميات ، وتفاوتاً في صفات التلفظ بها ، الى أن عادت اللغة العربية فحلت محل جدتها السامية ، في أنها اللغة العامة للجميع ؛ نورد لهم بعض الامثلة القريبة المأخذ ، وهي تنطق بأفصح لسان دالة على مبلغ القرابة فيما بين اللغات السامية كما تدل على قرابة الامم التي كانت تتكلم بها

خذ لك مثلاً كلمة « أب » التي بمعنى الوالد ، فانها من المواد الاصلية التي توجد في كل اللغات السامية ، وذلك مما يدل على وجودها في اللغة الاولى المنقرضة ، فورثتها عنها اللهجات التي تفرعت منها . وغاية ما في الباب أن لفظ « أب » يختلف قليلا في بعض اللهجات عنه في البعض الآخر : فالمتكلمون بالآرامية العراقية كانوا يلفظون هذه الكلمة بألف مفتوحة بعدها باء مشددة مفتوحة أيضاً وفي آخرها ألف ملساء . وهـذا التشديد في حرف الباء عارض لتوالي الفتحتين . أما المتكلمون بالآرامية الشامية فليفظونها بألف ممدودة بعدها باء مخففة مضمومة وفي آخرها ألف ملساء أيضاً

و « الانف » في العربية والبابلية بلفظ واحد ومعنى واحد . وكذلك في العبرية والسريانية ، الا أنها قد سقطت منها النون فيهما

و « العنب » في العربية والبابلية بلفظ واحد ومعنى واحد . وورد في العبرية والسريانية ساقطا منه النون أيضاً

وكلمة « خنع » العربية ـ ومعناها خضع وذل ـ يقابلها عند الكلدانيين « كنع » بمعنى خزي . وهذا اللفظ نفسه كان عند العبريين والفينيقيين بمعنى

ركع ووطوء ، ومنه « أرض كنعان » أي الارض السفلى ، يقابلها « أرض أرام » أي البلاد العالية . وبالعربية « الارم » بمعنى الحجارة تنصب علماً في المفازة . وهذه المادة أخت « ورم » العربية أيضاً بمعنى انتفخ ، يقابلها بالعبرية والفينيقية « روم » بمعنى ارتفع

وفي باب العدد كلمة « الثامن » بالعبرية ، فانها باللغتين المصرية والفينيقية تلفظ « أشمون » أي الثامن . وكلمة ثلاث العربية فانها بالسريانية « تلات » وبالعبرية « شلاش » ومثل ذلك كثير

وعلى ذكر ابدال التاء العربية بالتاء في السريانية وبالشين في العبرية نقول : ان كلمة « الثدي » موجودة بمعنى واحد في عدة لغات سامية ، غير أن السريان يقولون « تدا » والعبريين يقولون « شدا » . وفعل « يثب » العربي ورد في السرياني بلفظ « يتب » وبالعبري « يشب » ولذلك يسمي العبريون الاثوريين « أشوريين » وقد يأتي في السريانية عكس ذلك أحياناً : عوضاً عن أن يبدلوا التاء العربية تاء كما تقدم يبدلون التاء العربية ثاء ، ومن ذلك قولهم « أثا » بمعنى « أتى » أي جاء ، وقد ورد هذا اللفظ في الرسالة الاولى التي أرسلها بولس ـ حواري السيد المسيح عليه السلام ـ الى أهل كورنتس في قوله (١٦ : ٢٢) : « ماران أثا »

وكان العرب يسمون يوم الجمعة « العروبة » وهو بالسريانية « عروبتا » وبلغة الانباط « أربا »

و « القسور » بالعربية يقابله بالفينيقية « قشور » أى قوي شديد

ومن ابدال السين شيناً فعل « سأل » بالعربية فانه ورد بالسريانية والعبرية بلفظ « شال »

و « السبط » بمعنى ابن الابن وابن البنت يوجد في العربية والمصرية القديمة ولغات سامية أخرى . قال العلامة أحمد باشا كمال رحمة الله عليه : ان هذه اللفظة وجدت فى نصائح (بتاح حتب) ووجدت على جدران مقبرة (أمست)

بمعنى ما جاءت به في العربية

و « صهرَ » بمعنى طبخ وأذاب وردت في اللغتين العربية والمصرية بمعنى واحد

و « البيعة » بمعنى المعبد في العربية . ووردت في المصرية في ورق أبوت ١ ٢٠ المؤشر عليه برقم ١٠٢٢١ في متحف انكلترا وفسروها بمعنى الجبانة ، ولكن أحمد كمال باشا يرجح أنها بمعنى المعبد كما يدل عليه السياق

ومادة « زبر » و « ذبر » و « سفر » كلها واحدة بمعنى كتب . قال أحمد كمال باشا : انها قد تنوع لفظها في العربية وفي النصوص المصرية . قال : وهذا القلب والابدال في الحروف له أصول متبعة في اللغتين المصرية والعربية ، والسبب فيه تعدد القبائل ولهجاتها

وبالعربية « نسع » بمعنى ذهب في الارض . وهـذا الاشتقاق وارد في العبرية ، ومثله في الفينيقي لفظاً ومعنى . وقد ورد في سفر التكوين (١١ : ٢) : « ولما نسعوا من المشرق وجدوا بقعة في أرض شنعار فأقاموا فيها »

واتفقت التوراة واللغـة الـكلدية على تسمية (الجبابرة) المعروفين بكبر الاجسام باسم (كبرو) أو (جيبور)

ووردت كلمة الجبابرة في الاصل العبرى من التوراة في آية التكوين بلفظ « نوفل » أو « نيفليم » . وهذه المادة تفيد في العربية الغنيمة والزيادة والشدة والعظم ، فالعرب تسمى البحر نوفلاً ، وتسمي بعض أولاد السباع نوفلاً ، قال ابن عباد : والنوفل الشدة

وان اسم الفينيقيين أنفسهم عنوان صريح ، ودليل صحيح ، على مابينهم وبين العرب وسائر الساميين من أواصر القرابة : فان مادة « فنق » العربية تدل علي معنى الترفه والتدلل ، ويقول العلامة الفاضل السيد يوسف دريان ان هذا الفعل جاء في اللغة الآرامية والعبرية شقائق اللغة الفينيقية . وهذا المعنى ـ أي الترفة والتدلل ـ ملازم لمعيشة أهل التجارة كالفينيقين

و « قسا » من القسوة بالعربية ، وهو في السريانية والفينيقية والعبرية « قشه » بمعنى توعر وصلب وقسا ، ومنه (قاسيون) جبل دمشق المشهور

وعلى ذكر (دمشق) نقول : ان لفظ « الدم » بالعربي موجود بلفظه ومعناه في السرياني والعبري والفينيقي . وكذلك كلمة « سق » بالعربي تلفظ « شقه » باللغات السامية الاخرى . ويظنون أن من اجتماع لفظي « دم » و « شقه » يتركب اسم مدينة (دمشق) ، يشيرون بذلك الى حادثة قتل قابن (قابيل) أخاه هابيل وما يقال من وقوعها في دمشق . قال القديس (هيرونيم) في تفسيره لسفر عاموس (١ : ٥) وفي زكريا (٩ : ١) : « معنى دمشق : شراب الدم »

وعلى ذكر قابن وهابيل ننقل عن تاريخ سورية للحبر العلامة يوسف الدبس (عدد ١٨) أن معنى كلمة (قابن) قنية وثمرة . وقد وردت في الكتابات القديمة في نينوى وبابل بمعنى من يقتني عبداً . وربما كانت منها كلمة « قن » بالعربية بمعنى الرقيق . قال : وفسر الربيون « هابيل » بمعنى البخار أو « الهبلة » بلغة العامة ، وبمعنى الباطل والغم والحداد ، وفي العربية « هبلته أمه » بمعنى ثكلته ، لان مقتل هابيل كان لذويه علة الغم والحداد . وقال (أوبر Oppert) في كتابه (الدروس الآثورية : ص ٣٥) : ان هابيل ربما كان مشتقا من فعل « حبل » العربية فيكون بمعنى وليد . وان « هابال » و « هيبال » و « ابال » و « هبلو » باللغة الاثورية بمعنى « ابن » . قال العالم (سيلام) : « ان كل اللغات السامية أضاعت كلمة (هبلو) بمعنى ابن الا الاثورية » . ولفظ « حبل » العربي أخو لفظ « هبلو » الاثوري من حيث تلازمهما المعنوي

و « الرُّهام » في العربية بمعنى العدد الكثير ، و « راهام » بالعبرية والفينيقية ولغات أخرى سامية بمعنى الجماعة والجمهور ، ومنه اسم (ابراهيم) عليه السلام فانه مركب من كلمتي « اب رهام » ومعناه « أبو الجمهور » . وقد ورد اسم ابراهيم في القرآن في ٦٩ موضعاً ، منها ٣٣ موضعاً بلفظ

« ابراهام » بالالف في قراءة ابن عامر عن ابن ذكوان و ٣٦ موضعاً بلفظ « ابراهيم » بالياء

ومن الالفاظ التي لا تزال باقية في أكثر اللغات السامية ـ والعربية في جملتها ـ الالفاظ التي في بداية التوراة وهي « برا » بمعنى أوجد ، و« رواح » بمعنى الريح والروح القدس ، و « يوم » التي تدل على مدة من الزمن ؛ كأن هذه الالفاظ مشتركة في ألسنة أكثر السلائل السامية

وهنالك ألفاظ في بعض اللغات السامية ركبت تركيباً مزجياً بعد نحت أجزائها ، فصارت الى شكل يظن الانسان ـ قبل التأمل فيه ـ أنه ليس بينه وبين غيره من مواد اللغات السامية الاخرى علاقة اشتقاقية . مع ان الامر على خلاف ذلك . ومن الامثلة على هذا كلمة « عَدْمِش » السريانية بمعنى « حتى الآن » . فمن ذا الذي يظن أن لهذا اللفظ علاقة باللغة العربية ؟

ان كلمة « عدمش » مركبة من أربع كلمات :

« عد » : بمعنى حتى

« م » : وهي مختصرة من « ما » الموصولة

« ش » : وهي منحوتة من (ها شما) ، أما (ها) فحرف تنبيه واشارة وأما (شما) فمعناها (الساعة)

فلنا ان « عد » بمعنى حتى ؛ وهما حرفان متفقان في المعنى ومتقاربان في اللفظ . ومع ذلك فان في العربية « عتى » وهي في لغة هذيل وثقيف بمعنى حتى . وقد نص القاضي البيضاوي وغيره في تفسير الآية ٣٥ من سورة يوسف على أن قوله تعالى « ليسجننه حتى حين » قرئ في بعض القراءات « عتى حين » . وفي النهاية لابن الاثير (مادة عتا) : وفي حديث عمر رضي الله عنه بلغه ان ابن مسعود يقرئ الناس « عتى حين » يريد « حتى حين » فقال عمر رضي الله عنه : « ان القرآن لم ينزل بلغة هذيل ، فأقرئ الناس بلغة قريش » كل العرب يقولون حتى الا هذيلا وثقيفاً يقولون عتى . انتهى

والكلمات الثلاث الاخرى وهي «ما» الموصولة و«ها» التنبيه والاشارة و «شما» التي بمعنى ساعة مما لا يحتاج الى بيان. فهذه الكلمات الاربع لما ركبت ونحتت ومزجت انتقلت الى شكلها الغريب الذي أشرنا اليه

* * *

وبعد فهذا غيض من فيض، أوردناه على سبيل التمثيل فقط؛ لأن هذا الموضع لا يتسع للبسط والافاضة. اما استقصاء الموضوع على هذا النحو فلا يتيسر الا لأهل الاختصاص في معرفة اللغات السامية الجديرة بأن يكون لها معجم لغوي لمقارنة الكلمات العربية بما يشاركها - من حيث الاشتقاق - في اللغات السبأية والفينيقية والعبرية والسريانية الشامية والسريانية العراقية والمصرية القديمة والحبشية والسقطرية ولغة الانباط في جنوب فلسطين وسائر اللغات السامية

وما أشد افتقار العربية الى معجم منفصل كهذا المعجم، تقارن فيه الكلمات المتشابهة في جميع اللغات السامية؛ اذن لاستطاع الناطقون بالضاد اليوم أن يشاهدوا بأعينهم كيف ان لهذه اللغات السامية كلها أصلا واحداً وهو السامية الاولى التي بادت. وحينئذ ينفتح باب جديد لوضع معجم عربي تحليلي تنكشف به عن مواد لغتنا الشريفة طبقات وأستار ما زالت تترا كم عليها منذ ألوف السنين فتحجب اسرار جمالها وجمال اسرارها

ولعل القراء قد علموا مما تقدم أن اللغة السامية القديمة لم تضمحل من الوجود باهمال ابنائها التكلم بها، أو باضمحلال المتكلمين بها. وحكاية الواقع هي ان المتكلمين بها كان عددهم في باديء الامر قليلا، وكانوا اشبه بقبيلة واحدة تسكن منطقة غير واسعة وتتكلم بلغة واحدة؛ فاذا مضت عليهم العصور تكاثروا وتشعبت من القبيلة الاولى قبائل متفرعة عنها تضيق بهم بلادهم، فاذا مر عليهم وهم في هذه الحال نحو عشرة قرون هاجرت فئة منهم مبتعدة عن موطنها الاول الى أن تحط رحالها في مكان تستطيبه. وهناك تتوطن

وتتناسل ، وتبتدع اسماء جديدة لمسميات جديدة لم تكن موجودة قبل نزوحها عن الموطن الاول ، فتكون الاسماء الجديدة خاصة بها دون قومها الاولين . ومن اعظم ما تتفاوت فيه الفروع اللغوية التي ترجع الى اصل واحد تباينها في تركيب اللفظ الواحد من الفاظ متعددة على طريقة المزج والنحت كما رأيت في وضع السريانيين كلمة « عدمش » لمعنى « حتى الآن » . ولا ينكر تأثير الاقليم على اللهجة وكيفية النطق وصفة المنطق ، يضاف الى ذلك تأثير لغة من يختلطون بهم من اهل الوطن الجديد بعد مجاورتهم لهم فيه . كل هذا مما يدعو الى حدوث شيء من الاختلاف بين لغة الراحلين ولغة قومهم المتخلفين في الوطن الاول . وكلما مضت عليهم عصور اخرى ازداد الاختلاف ، ولكن ليس الى الحد الذي يخرج اللغة عن اصلها

وربما عقدنا فصلا في أحد الاعداد الآتية من (الزهراء) لهجرات الامم السامية ، وتحقيق موطنها الاول ، والاوقات التي هاجرت فيها

وان ما قيل في لغات المهاجرين يقال في لغة المتخلفين ، فان ما ادخلته الحاجة على اللغة السامية الاولى من الاسماء الجديدة للمسميات الجديدة ربما كان اكثر عدداً مما دخل من ذلك على اللغات المتفرعة عنها ، لأنها اعرق منهن في القدم ، واشد منهن توغلا في اودية المعاني ، وأرسخ منهن نظاماً في فنون البيان وضروب الفصاحة وأساليب اللغة وأدوات زينتها وبدائع حلاها . فالارتقاء التدريجي الذي انتهجت تلك اللغة الاولى سبيله عشرات الالوف من السنين أخرجها من شكلها الابتدائي الذي كان فيه ، وأوصلها الى مرتبة عالية من مراتب الجمال والكمال . ولذلك نقول : ان اللغة السامية الاولى باقية ولكن بمادتها ، وانها اضمحلت من حيث الشكل الذي نظن انه كان لها قبل زمن التاريخ . . .